مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة1 المجلد (27) – العدد (01) (جوان، 2026) -ص 25- 38
ISSN 1111-5149 /E. ISSN 2430-2588

الاستسقاء في الموروث الشعبي:

دور نساء منطقة جبالة (تلمسان) في طقوس استنزال المطر

Rainmaking in Folk Traditions: The Role of JBALA Women (TLEMCEN) in Rain Invocation Rituals

يمينة باغور[1]* ، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، yamina.baghor@univ-tlemcen.dz
https://orcid.org/0009-0006-4758-6303
هديل عراب[2]، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، hadilarab847@gmail.com
https://orcid.org/0009-0006-7831-1097

تاريخ الاستلام	تاريخ القبول	
2025-05-02	2026-04-11	

ملخّص

يُعالج هذا المقال طقوس الاستسقاء في الموروث الشعبي بمنطقة جبالة (تلمسان)، مع التركيز على الدور الرمزي والاجتماعي الذي تؤديه النساء في ممارسات استنزال المطر. وينطلق البحث من إشكالية تتعلق بكيفية ممارسة النساء لهذه الطقوس، وما تحمله من دلالات ثقافية واجتماعية، إضافة إلى رصد التحولات التي عرفتها في ظل التغيرات الحديثة. واعتمدت الدراسة على المنهج الأنثروبولوجي الوصفي التحليلي، مدعومًا بمقاربة اثنوجرافية من خلال الملاحظة والمقابلة الميدانية. وقد أظهرت النتائج أن المرأة تحتل مكانة مركزية داخل الطقس بوصفها رمزًا للخصوبة والوساطة بين الجماعة والطبيعة، كما كشفت الدراسة عن تداخل العناصر الدينية والشعبية في هذه الممارسات، واستمرار حضور رموز قديمة أعيد تأويلها ضمن السياق الإسلامي المحلي. وتخلص الدراسة إلى أن طقوس الاستسقاء تمثل جزءًا من التراث اللامادي الذي يعكس الذاكرة الجماعية والهوية الثقافية للمجتمع الجبلي، مما يستدعي توثيقها وحمايتها من الاندثار.

الكلمات المفتاحية: الاستسقاء؛ الموروث الشعبي؛ الطقوس؛ المرأة؛ جبالة (تلمسان)

Abstract

This article examines rainmaking rituals in the folk heritage of the JBALA region (TLEMCEN), with particular emphasis on the symbolic and social role played by women in rain invocation practices. The study addresses the question of how women perform these rituals, the cultural and social meanings embedded within them, and the transformations they have undergone in the context of modern social change. The research adopts a descriptive and analytical anthropological approach supported by ethnographic methods, including field observation and interviews. The findings reveal that women occupy a central position within these rituals as symbols of fertility and mediators between the community and nature. The study also highlights the interweaving of religious and folk elements, as well as the persistence of ancient symbolic practices reinterpreted within the local Islamic context. The article concludes that rainmaking rituals constitute an important form of intangible cultural heritage reflecting the collective memory and cultural identity of the mountain community, which calls for their documentation and preservation.

Keywords: Rain invocation; Folk heritage; Ritual; Women; JBALA (TLEMCEN).

* المؤلف المراسل

مقدّمة

شكَل المطر عنصرًا حيويًّا في حياة المجتمعات الزراعية، حيث ارتبطت به دورة الحياة الاقتصادية والاجتماعية والرمزية. وقد دفعت الحاجة إلى تأمين المياه خاصة في فترات الجفاف بالإنسان إلى ابتداع طقوس جماعية ترجو استنزال الغيث، تجمع بين الدعاء والممارسات الرمزية، في محاولة للتأثير على قوى الطبيعة أو استرضائها. في منطقة جبالة (1)، ذات الطبيعة الجبلية والارتباط الوثيق بالأرض، حافظت النساء عبر الأجيال على أدوار محورية في طقوس الاستسقاء، حيث جسدن بأجسادهن وأهازيجهن وممارساتهن تمثلات المجتمع للعلاقة بين الإنسان والمطر، وبين الأرض والخصب.

نسعى في هذا المقال إلى فهم كيفية مساهمة النساء في استنزال المطر من خلال الطقوس الشعبية بجبالة، وتحليل الرموز المرتبطة بهذه الممارسات ودلالاتها الثقافية والاجتماعية، انطلاقا من هذا المعطى نطرح الإشكالية التالية: كيف تمارس نساء منطقة جبالة طقوس الاستسقاء؟ وما هي الرموز والمعاني الاجتماعية والثقافية التي تحملها هذه الطقوس؟ وكيف تغيَرت هذه الممارسات مع التحوَلات الحديثة؟ وللإجابة على هذه التساؤلات وضعنا مجموعة من الفرضيات أهمَها:

- تشَكل النساء محورًا رئيسًا في طقوس الاستسقاء نظرًا للارتباط الرمزي بين الأنوثة والخصوبة.
- تحافظ طقوس الاستسقاء النسائية على مضامين ثقافية عميقة تتجاوز الطابع الديني إلى أبعاد اجتماعية ووجودية.
- شهدت طقوس الاستسقاء تحوَلات أو انقراضاً جزئيًا بفعل تغيَر أنماط العيش وانتشار التصوَرات الدينية الحديثة.

وقد اعتمدنا في هذا المقال على المنهج الأنثروبولوجي الوصفي التحليلي لوصف الممارسات الطقسية المرتبطة بالاستسقاء ولتحليل الأبعاد الرمزية لها، كما اعتمدنا في الجانب الميداني على المنهج الاثنوجرافي وعلى مجموعة من تقنيات البحث كالملاحظة والمقابلة. ونهدف من خلال ذلك إلى: توثيق طقوس الاستسقاء النسائية في منطقة جبالة وتحليل بنيتها الرمزية، وإبراز مكانة المرأة ودورها الاجتماعي من خلال هذه الطقوس، وأيضا فهم التغيَرات التي طرأت على هذه الطقوس بين الماضي والحاضر، وأخيرا الإسهام في حفظ جزء من التراث اللامادي المحلي المهدَد بالاندثار.

أولاً- الإطار النظري والمفاهيمي

يُعد فهم الظواهر الطقوسية المرتبطة بالمطر مدخلًا أساسيًا لفهم علاقة الإنسان بالطبيعة في المجتمعات التقليدية. وفي هذا الإطار تتأسَس هذه الدراسة على مقاربة أنثروبولوجية تدمج بين البعد النظري والتحليل المفاهيمي لموضوع الطقوس، مع تركيز خاص على طقوس الاستسقاء التي تمارسها نساء منطقة جبالة (تلمسان). ومن الناحية المفاهيمية، يشير مفهوم الطقس (ritual) إلى مجموعة من الأفعال المنتظمة والمتكرَرة، المحمّلة بالرموز، والتي يؤديها الأفراد أو الجماعات في أوقات مضبوطة استجابة لحاجات اجتماعية أو روحية معيَنة، يعرَفه المعجم الوسيط بأنه **نظام الخدمة الدينية او شعائرها واحتفالاتها المقدسة** (الوسيط، 2004، صفحة 561)، و" الطقوس" كلمة

يونانية الأصل ولا يوجد لها مرادفا في اللغة العربية ويقصد بها **الترتيبات والنظم الروحية التي يجب مراعاتها في العبادة المسيحية من صلوات كلامية أو حركات خشوعية أو رمزية، وهي في الحقيقة تقابل الشعائر عند المسلمين** (سيساوي، 2018، صفحة 435)، وهي تشير أيضا إلى **مجموع الأنشطة والأفعال المنظَمة التي تتخذها جماعة ما خلال احتفالاتها** (المحواشي، 2010، صفحة 18). الطقوس إذن ممارسة رمزية ضرورية لإشباع حاجات الجماعة فهي إذن فعل جماعي بامتياز، يعيد تشكيل الروابط الاجتماعية ويعزّز الهويَة الجماعية، كما يعبَر عن تصوَرات المجتمع حول قوى الطبيعة والغيب. والطقوس ليست مجرَد أفعال مكرَرة بل تشكل أطرًا لإعادة بناء المعاني وإعادة انتاج النظام الرمزي للمجتمع.

ويصبحُ الفعل الطّقوسيّ في سياق طقوس الاستسقاء، تعبيرًا عن سعي جماعي لاستعادة التوازن بين الإنسان والعالم الطبيعي، حيث يُنظر إلى الجفاف كاختلال يحتاج إلى تصحيح عبر وسائل رمزية، ويرتبط طقس الاستسقاء بشكل خاص بفكرة الخصوبة، باعتبار المطر رمزًا للإنبات والحياة، وهنا تظهر أهمية المرأة باعتبارها رمزًا للخصب والعطاء في المخيال الجمعي، مما يفسر الدور المحوري الذي تلعبه النساء في هذه الطقوس.

يحيلنا من جهة أخرى الحديث عن الموروث الشعبي إلى منظومة من المعارف والممارسات والعقائد التي تنتقل شفهيًا عبر الأجيال، وتشكّل جزءاً من الهوية الثقافية للجماعة. وطقوس الاستسقاء بوصفها مزيجًا من الاعتقاد والممارسة والرمز، تُعتبر تعبيرًا حيويًا عن هذا التراث، حيث تتداخل الأبعاد المادية (كالأهازيج والأدوات والفضاءات) مع الأبعاد الروحية (كالنوايا والأدعية والرموز المقدَسة). وبناءً عليه سنتناول في هذا العنصر الإطار النظري لمفاهيم الطقس والموروث الشعبي والرمزية الأنثوية، مع ربطها بسياق الممارسات التقليدية في مناطق مختلفة من الجزائر وفي منطقة جبالة على وجه الخصوص، بما يسمح بفهم أعمق لدور النساء في استدرار المطر عبر طقوس محمّلة بالمعاني الثقافية والاجتماعية والدينية.

الاستسقاء في الجزائر: بين المقدس واليومي

تشكّلُ الطقوس الدينية مثل الاستسقاء بنيةً رمزيةً تحمل معاني دينية واجتماعية مزدوجة، ولا تقتصر على بعدها التعبدي الخالص. ولفهم هذه الطقوس بوصفها ممارسَة شعائرية تقع على تخوم الدين والمجتمع، يجب أن ننظر إلى الاستسقاء باعتباره ممارسة رمزية جماعية تهدف إلى استجلاب المطر عبر أداء طقوس موجَهة إلى قوى عليا (إلهية أو كونية)، مما يعكس إدراك الجماعات للعلاقة بين الإنسان، الطبيعة، والمقدس.

ونجد في السياق الديني الإسلامي، أنَّ صلاة الاستسقاء هي طقس معترف به شرعا يستند إلى أحاديث نبوية صحيحة مثل حديث أنس بن مالك عن خروج النبي صلى الله عليه وسلَم للاستسقاء (2)، وهي تتميز بخطوات مضبوطة (خروج الناس جماعةً، الدعاء، أداء ركعتين خاصتين، خطبة قصيرة)، مما يربط الفعل البشري بحاجة الطبيعة (المطر) بإرادة إلهية، ويعكس الدعاء والاستغفار الجماعيين هنا أبعادًا روحية ترتبط بالتوبة الجماعية والاعتراف الجماعي بالتقصير الأخلاقي الذي يرى أنه سبب الجدب.

يتّخذُ الاستسقاء على مستوى الثقافة الشعبية، أبعادًا طقسية غير رسمية أحيانًا حيث تمتزج المعتقدات الدينية مع عناصر ميثولوجية وعادات محلية، ومن الأمثلة على ذلك في شمال إفريقيا عامَة والجزائر خاصَة: طقس "عرس السحابة "أو "عروسة الغيث "أو " غنجة" أو "أنزار" وهي تسميات لطقس الاستسقاء الذي تعود جذوره للأسطورة التي تحكي أنَ إله المطر "أنزار" أحبَ فتاة رائعة الجمال وأراد الزواج منها لكنها رفضته فحبس الماء عن قبيلتها حتى أصابهم الجفاف والقحط، فما كان منها إلاَ أن تضرَعت له وقبلت به زوجا من أجل قبيلتها. **تقول الأسطورة إنَ أنزار تزوَج الفتاة وأصبحت "تسليت ن أنزار" أي عروس أنزار، وحملها بين ذراعيه ورجعا إلى السماء، وجعلت حياته ملوَنة بألوان السعادة والخير، تلك الألوان التي تسمى قوس قزح حسب الأسطورة الأمازيغية هي نتاج زواج أنزار بتسليت، وما قوس قزح إلاَ ظل للطريق التي عرجا بها نحو السماء** (بلقاسم، 2020)

يتمُّ التحضير لطقس الاستسقاء بطرق مختلفة عبر أرجاء الوطن؛ لكن القاطع المشترك بين كل المناطق هو الإعداد للزردة أو الوعدة وهي تجمَع يذبح فيه أنواع من الأنعام لإعداد مأدبة تحتوي على ما لذ من الأطعمة التقليدية، وبهذه المناسبة يصنع الأطفال دمى تعرف بغنجة وهي عبارة عن مغرفة خشبية مزيَنة بثياب العروس، وقد يستعاض عن الملعقة بأشياء أخرى كالقصب الذي يرمز للخصوبة والعذرية، والقمع نظرا لعلاقته بالسوائل، والمسحاة باعتبارها ترتبط بالمحصول الزراعي. ويطوف الصغار بها بين الدواوير والقرى متجهين رفقة النسوة نحو أضرحة الأولياء الصالحين بالمقابر، مردَدين أناشيد خاصة بالاستسقاء، و**في الطريق يتم رش الدمية بالماء من أعالي البيوت من قبل السكان** (أوسوس، 2025) في تعبير رمزي عن الرجاء والتوسَل لنزول المطر. ومن أشهر الأهازيج التي يرددها الأطفال في مناطق مختلفة من الجزائر نذكر أهازيج سكان منطقة عين الصفراء بالجنوب الغربي:

غنجة غنجة حلَت راسها
يا ربي تبلَ خراصها
السبولة عطشانة
رويها يا مولانا
يا رجال اللّه حنوا وجودوا
وارغبوا المولى يسقي عباده
جينا للّه قاصدين نمشوا على الأقدام
وأنتوما يا أهل الوفا بالجود والكرام (أومغار، 2025)

وفي منطقة سيدي عبيد (تبسة) بالشرق الجزائري ينشد الأطفال:

القايمة لبست لخضر
مشات تتبختر
يا ربي اعطينا المطر
والقايمة لبست سخاب
يا ربي تعطيني سحاب

ودائما بتبسة في منطقة الشريعة تردَد الأهازيج التالية:

قايمتنا فوق الدار

يا ربي اعطينا الأمطار

قايمة يا شهلولة

إن شاء اللّه تروحي مبلولة

قايمتنا فوق البو

يا ربي اعطينا النو

قايمة يا قايمة

عن شاء اللّه تروحي عايمة

القايمة لبست لخضر

يا ربي اعطينا المطر

صب يا سحاب صب

النعجة طالبة الشرب (بوقفة، 2024، صفحة 227)

بينما في منطقة تلمسان بالغرب الجزائري ينشد الأطفال:

يا غنجة غنجة طالب الرجا

يا ربي تعطينا الشتا

جلجالة جلجالة باش تعيش الهجالة

السبولة عطشانة غيثها يا مولانا

الزرع صفر ورقها غيثها يا من خلقها

يا رجال الزاوية بيتوها روية

يا رجال بني حمليل بيتوها غير تسيل

يا رجال بني وعزان بيتوها كالويدان

يا رجال بني وكيل لا تخلوها تميل

يا رجال بني سنوس صبحوها كالقادوس (أومغار، 2025)

يختار الأهالي في منطقة القبائل الكبرى (3) فتاة عذراء يحملونها على ظهر دابة، ويرشونها بالماء خلال مسيرتهم إلى المسجد أو الزاوية، وفي الطريق تُتلى أيضا الأدعية طلبًا للغيث، وتختتم الطقوس بذبح أضحية أحيانًا، وفي مناطق أخرى من الوطن يخرج الناس في مواكب جماعية تحمل رموزًا مائية (مثل جرار مملوءة)، أو رموزًا حيوانية مقدَسة (ثور أو نعجة) يتم تزيينها، وكلها رسائل رمزية لتحفيز السماء على المطر. هذه الطقوس قد لا تكون دائمًا "مؤسسة دينيًا"، لكنها تمثل استمرارية شعور جمعي بعلاقة الإنسان بالطبيعة، وهي تتسم بالمرونة والسردية، حيث يتم تحميل الرموز معاني متعدَدة كالخصب والطهارة والبركة.

وتبرز جدليّة الفعل الرّمزيّ بين المقدَس واليوميّ، فعلى المستوى اليومي يتحوَل طقس الاستسقاء إلى ممارسة اجتماعية تجدَد الروابط الجماعية، إنَ اجتماع الناس وتشاركهم للهموم

والمشاكل يعيد تشكيل شعورهم بالانتماء، بينما على المستوى المقدس، يظل الاستسقاء تذكيرًا بوضع الإنسان ككائن ضعيف يعتمد على قوى غيبية تفوق إرادته، والتداخل بين المستويين يكشف أن الحياة الدينية ليست معزولة عن الحياة اليومية، بل تتجذَر فيها وتمتزج بالتجربة الحياتية العادية. إنَ طقس الاستسقاء يبلور مفهوم "المقدس المعاش(Sacré vécu) "، حيث لا يتم الانفصال الصارم بين الديني والعادي، بل يحدث تداخل جدلي يعكس مخاوف الإنسان وآماله الجماعية، مجسدة عبر الرمز والدعاء والفعل الجماعي، وحول هذا الموضوع يقول الباحث خالد العيوض:"**نجد هنا نوعا من التعايش بين نمطين، النمط الإسلامي المرتبط بصلاة الاستسقاء ... وهذا النمط من الطقوس التي بقيت حاضرة في مناطق منعزلة كالجبال وبعض الواحات**" (بيجيكن، 2022)

المرأة الجزائرية والطقوس: الأدوار الرمزية والاجتماعية للنساء في الثقافة الشعبية

نقارب هذا الموضوع من خلال المنظور الأنثروبولوجي الرمزي والاجتماعي، مع استحضار الفرضية الأساسية بأن النساء في المجتمعات التقليدية، لا يشاركن فقط كمؤديات للطقوس بل كرموز حاملة لمعانٍ ثقافية كبرى تتعلَق بالحياة والخصوبة والحماية. تؤدّي المرأة في الطقوس الشعبية دورًا مزدوجًا (فاعلًا اجتماعيًا وشيفرة رمزية)، وفي العديد من المجتمعات التقليدية تشكَل النساء المحور الأساسي في تنظيم الطقوس الجماعية، خاصة تلك المرتبطة بالخصوبة والحصاد وطلب الغيث والاحتفال بالأعياد الموسمية، وفي طقس الاستسقاء غالبًا ما يتم تكليف النساء (وخاصة العذارى أو الأرامل) بقيادة الدعاء أو حمل الرموز الطقسية (كالدمى أو المجسمات المرتبطة بالمطر)، وفي طقوس الخصوبة الزراعية، تتصدر النساء مواكب الغناء والرقص لطلب الخصب من القوى الطبيعية، وينظر إلى المرأة بوصفها وسيطًا بين الجماعة والطبيعة، بفضل رمزيتها المرتبطة بالإنجاب والنماء.

تعتبر المرأةُ في الطّقوس رمزًا للخصوبة فهي تمثل مبدأ الولادة والتجدَد، لذلك توكل إليها الطقوس المرتبطة بالحياة الجديدة، والمطر، والزراعة، والحماية من الكوارث الطبيعية، كما تعتبر أيضا رمزا للحماية فوجود المرأة (خصوصًا الأم أو الأرملة) في بعض الطقوس الشعبية يرمز إلى الحماية والشفاعة لدى القوى الغيبية، كما ترمز للطهارة ففي بعض الطقوس يتم اختيار النساء المعروفات بالطهارة الأخلاقية (كالعذارى) لأداء مهام محددة، إيمانًا بأن الطهر الجسدي يقابل الطهر الروحي. وبهذا تبني الطقوس جسورًا بين "الأنثوي" والطبيعي" معتبرة أن الخصائص البيولوجية والاجتماعية للنساء تحمل معاني كونية.

وتمنح الطقوس للنساء أدوارًا قيادية مؤقَتة تسمح لهن بتجاوز بعض الحدود الاجتماعية المفروضة عليهن في الحياة اليومية، فعبر الطقس تشارك النساء في بناء التضامن الجماعي ونقل القيم الثقافية والحفاظ على الذاكرة الجمعية، كما تشكَل الطقوس أيضًا فضاءً لإعادة تأكيد الأدوار الاجتماعية التقليدية أو أحيانًا لإعادة التفاوض عليها خصوصًا في فترات الأزمات، وبهذا تتيح الطقوس للنساء هامشًا للظهور الجماعي والمشاركة في القرار الرمزي حتى ضمن المجتمعات الأبوية.

نخلصُ في الأخير إلى أنه في الثقافة الشعبية تبرز الطقوس كمرآة عاكسة لعلاقة المجتمعات التقليدية بالأنثوي من خلال مزيج معقَد من التبجيل والتقييد، فالمرأة تمثّل محورًا طقسيًا يجمع بين الفاعلية الاجتماعية والرمزية الثقافية ذلك أنَ الطقوس تُبقي على حضور النساء في المجال العمومي الرمزي. لكنها قد تعيد أيضًا إنتاج أطر تقليدية تحصر أدوارهن، فعلى ا لرغم من أنها تمنحهن أدوارًا رمزية قوية، إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة تحررًا اجتماعيًا، بل قد يعزّز أحيانًا الصورة النمطية التقليدية عن المرأة ككائن طبيعي محكوم بالخصوبة والطهارة فقط، ولهذا قد تتحوَل مشاركة المرأة في بعض السياقات إلى مساحة مقاومة ناعمة ضد الأطر الاجتماعية المقيَدة.

الرمزيات المرتبطة بجسد المرأة ودوره في طقس الاستسقاء بالجزائر

تتأسس الطقوس التقليدية مثل طقس الاستسقاء على بنية رمزية تنظر إلى المرأة بوصفها تجسيدًا للأرض، للخصوبة، وللقوة الحيوية الكونية، يُقام طقس استسقاء المطر (المعروف بعدة تسميات مثل: "أنزار" بالأمازيغية، أو "طلب السقاية" بالعربية المحلية) عند تأخر الأمطار، ويتم استحضار رمزية العلاقة بين البشر والطبيعة عبر طقوس جماعية، تقودها النساء أو تشارك فيها فتيات صغيرات، ويتم استخدام دمية تمثل رمزًا للخصوبة أو تجسيدًا للإله أو المطر، ويتم ترديد أناشيد دينية أو شعبية تطلب المطر.

وغالبًا ما يقع الاختيار على فتاة صغيرة أو عذراء لم تتلوث "بخبائث الحياة" بعد (حسب التصورات التقليدية)، والعذرية هنا ترمز إلى الصفاء والطهارة المطلوبين لاستدرار رحمة الطبيعة/الإله، بينما يُمثل الجسد الأنثوي العذري خصوبة الأرض العذراء المنتظرة للبذار والمطر.

الجسد العذري = الأرض النقية + القابلية للحياة = الأمل في الخصب والانبعاث.

تغطى الفتاة بالورود الخضراء أو أغصان الزيتون أو الحبوب أو تزيَن الدمية بالحناء والزهور (الحلي والملابس الجديدة المستخدمة ترمز إلى الربيع والتجدَد والوفرة).

الزينة الخضراء = إحياء الأرض اليابسة وتحفيز دورة الحياة الطبيعية.

تجوب الفتاة أو الدمية القرى، مع ترديد نساء القرية لأهازيج طقسية تطلب السقيا، وترمز الحركة الجماعية هنا إلى وحدة الجماعة وتوسلها الجماعي للسماء، كما أن تحريك الجسد النسوي في الفضاء الاجتماعي يحمل دلالة طقسية على الرغبة في تحريك دورة الطبيعة الراكدة.

الطواف = تفعيل القوة الكامنة في الأرض، عبر إيقاظ الخصوبة.

يسكبُ القرويّون في بعض المناطق، الماء على الفتاة أو على الدمية رمزياً، الماء هنا يمثل محاكاة رمزية للمطر المنتظر.

الاغتسال = استدعاء المطر وتنشيط قوى الطبيعة عبر الجسد الأنثوي.

وفق تحليل سيميائي طقسي، يتودع جسد المرأة/الفتاة في طقس الاستسقاء ضمن شبكة معقَدة من الرموز كما يوضَح الجدول التالي:

جدول رقم (1): الرمزيات المرتبطة بجسد المرأة

الرمز	الدلالة	التأويل
الطهارة (العذرية)	صفاء الأرض	استعداد الأرض لتلقي المطر
التزيين بالزهر	انتعاش الطبيعة	عودة الربيع والخصوبة
الماء المسكوب	دعوة الرحمة	تحفيز السحب على المطر
الطواف الجماعي	وحدة الجماعة مع الطبيعة	إعادة تأسيس العلاقة بين الإنسان والكون

المصدر: من إعداد الباحثتين

يشير بعض الباحثين إلى أن هذا التركيز على الجسد الأنثوي العذري يعكس رؤية ثقافية قديمة تمجّد الخصوبة والطهارة، لكنّها قد تضع المرأة ضمن أطر رمزية مقيّدة. ويمكن القول إن الجسد الأنثوي في طقس الاستسقاء بشمال إفريقيا يتجسّد كرمز كوني: هو الأرض، هو الأمل، هو وعاء الخصب والتجدّد. ويتم شحن هذا الجسد بالرموز الطقسية لضمان استمرارية الحياة وربط الإنسان بدورته الطبيعية المقدسة، وفيما يلي مخطط سيميولوجي للجسد الأنثوي في طقس الاستسقاء بالجزائر:

جدول رقم (2): مخطط دلالي لجسد المرأة في طقوس الاستسقاء

العنصر الرمزي	التمظهر الجسدي	الدلالة الرمزية	الوظيفة الطقسية
العذرية	اختيار فتاة لم تتزوج	الصفاء – الطهارة – الاستعداد للتخصيب	تأهيل الأرض لاستقبال المطر
الزينة (الزهور- الحلي- الأغصان)	تزيين الجسد الأنثوي أو الدمية	التجدد - الحياة - الإخصاب	استدعاء خصوبة الطبيعة
الماء المسكوب	رش الماء على الفتاة أو الدمية	المحاكاة الرمزية لنزول الغيث	تحفيز دورة المطر
الحركات الجماعية (الطواف)	مسيرة الفتاة وسط القرية	الوحدة الجماعية مع الطبيعة	تعزيز قوة الدعاء الطقسي
الأهازيج والغناء	استخدام الصوت الأنثوي	التعبير الجماعي عن الحاجة والغوث	فتح قنوات التواصل مع القوى الغيبية
حمل الدمية (أنزار أو عروس إله المطر)	تمثيل جسدي أنثوي رمزي	التجسيد الميثولوجي لقوى الطبيعة	إعادة تمثيل العلاقة الأرض/السماء

المصدر: من إعداد الباحثتين

وفيما يلي مخطط إضافي تحليلي يظهر أنَ الجسد الأنثوي ليس مجرد "وسيط" بل "بنية دلالية كاملة" تمثّل (الأرض-الخصوبة-الحياة)، وبأنَ الطقوس تنظَم هذا الجسد وفق منظومة سيميائية دقيقة لفتح قنوات رمزية نحو الطبيعة والميتافيزيقا، فعبر تزيين الجسد وتحريكه ورشه بالماء تُعاد دورة الطبيعة بشكل تمثيلي رمزي.

الجدول رقم (3): البنية الدلالية لجسد المرأة

مستوى الرمز	الجسد الأنثوي يمثل:	الغاية الطقسية
الطبيعي	الأرض الخصبة	تحفيز دورة الطبيعة
الاجتماعي	وحدة الجماعة	تجديد العقد الاجتماعي عبر الدعاء الجماعي
الميثولوجي	الآلهة الأم – قوى المطر	استرضاء القوى العليا لمنح الحياة

المصدر: من إعداد الباحثتين

ثانيا: الطقوس الاستسقائية في الموروث الشعبي بمنطقة ترنانة (جبالة/ تلمسان)

تُشكّل الطقوس الاستسقائية في الموروث الشعبي الجبلي إحدى أبرز التعبيرات الرمزية عن العلاقة العميقة بين الإنسان والبيئة الطبيعية. فقد ارتبط الجفاف، بوصفه كارثة طبيعية تهدد الأمن الغذائي والاستقرار الاجتماعي، بمجموعة من الممارسات الطقوسية التي تسعى إلى استدرار الغيث وإعادة التوازن للعالم الطبيعي المختل. وفي منطقة جبالة (تلمسان)، كما في غيرها من البيئات الجبلية المغاربية، تطورت طقوس خاصة بالاستسقاء، محمّلة بمعانٍ دينية واجتماعية ورمزية غنية. تقوم هذه الطقوس على تصوّر شعبي يرى أن الجفاف ليس مجرد ظاهرة طبيعية، بل عقوبة أو اختبار يتطلب توبة جماعية وطلبًا للصفح الإلهي. لذا تكتسي الطقوس طابعًا جماعيًا تعبويًا، حيث تشارك فيها مختلف فئات المجتمع، مع منح النساء دورًا قياديًا رمزيًا في استجلاب الغيث، بالنظر إلى ارتباطهن التقليدي بفكرة الخصوبة والنماء. ومن أبرز أشكال هذه الطقوس تنظيم مسيرات جماعية تجوب القرى والحقول، يتصدرها الأطفال أو النساء حاملات رموزًا مائية أو دمى تمثل المطر، مثل "عروسة الغيث"، مع ترديد أناشيد استسقائية وأدعية تنشد الرحمة والغوث.

تتميّز الطقوس الاستسقائية في الموروث الجبلي أيضًا بحضور قوي للبعد الطهوري؛ إذ تُرافقها طقوس اغتسال جماعي في الوديان أو رش المياه على المشاركين، إيمانًا بأن الطهارة الجسدية شرط لاستجابة الدعاء. وتستحضر هذه الطقوس مزيجًا من الرموز الدينية الإسلامية (كالاستغفار والصلاة) والرموز العتيقة السابقة للإسلام (كالتوسل بالعناصر الطبيعية مثل الماء والتراب والنباتات)، مما يعكس استمرارية بنى رمزية ضاربة في القدم.

وبدأت ومع مرور الزمن، هذه الطقوس تعرف تحولات لافتة بفعل عوامل التحديث والتحولات القيمية، حيث تراجعت بعض أشكالها التقليدية، بينما حافظت أخرى على حضورها الرمزي وإن بأشكال جديدة تراعي السياقات الدينية والاجتماعية المعاصرة. ورغم ذلك، ما زالت الطقوس الاستسقائية تمثل جزءًا حيًا من ذاكرة المجتمع الجبلي، تؤرخ لعلاقة الإنسان بالأرض والمطر، وتكشف عن آليات الجماعة في التعامل مع الأزمات البيئية عبر البنى الرمزية والثقافية.

عندما ينقطع المطر في ترنانة (4) تتفق النساء على تحضير ما يسمى عندهن بالصدقة حيث تقوم بجمع النقود لشراء لوازم الطعام كما تقوم بالطواف على البيوت لجمع ما تيَسر من الخضر والدقيق لإعداد مجموعة من الأطباق التقليدية كالكسكسي والمبسَس. وفي يوم الجمعة اليوم المقدَس للمسلمين تقام "الوعدة" ويشارك فيها كل أبناء المنطقة على اختلاف أعمارهم وجنسهم ومراكزهم الاجتماعية. تحضَر السيدات في مقتبل العمر الطعام (الكسكس باللحم مرفقا

بالتمر واللبن) بينما تجلس المسنات لمراقبتهن، وبعد صلاة الجمعة يقدَم الطعام للرجال أولاً ثم للنساء المسنات ثم للأطفال وباقي النساء، بعد الانتهاء من المأدبة يصنع الأطفال غنجة بالقصب ويلبسونها ملابس قديمة ويضعون على رأسها كسكاس من الحلفاء، هنا تقوم إحدى السيدات المسنات قائلة لهم "نوظوا اطلبوا الشتا" أي قوموا لطلب الغيث وتطلب منهم قلب ملابسهم وأحذيتهم(وحسب السيدات فإنَ هذا الفعل يرمز إلى الرغبة في تغيير الأحوال من الجذب إلى الخصب وأيضا يرمز إلى التواضع والخضوع للّه) ثم ينطلقون باتجاه المقبرة وفي الطريق تقوم إحدى السيدات برش الأطفال بالزميت (وهو عبارة عن مسحوق الزرع المطحون مخلوطا بالماء) كما يأكل البعض من هذا الخليط وهم يردَدون:

الشتا الشتا صبي صبي
باش نعيشوا يا ربي
والطوبا عطشانة
غيثها يا مولانا
مولانا وأصحابوا
في الجنة ينصابوا
أشتا جن جن جن جن
باش نحشوا بالمنجل
الزعر أصفر ورقه
غيثه يا من خلقه ورقَه
يا ربي غيثنا
باش يقطر بيتنا



تقوم السيّدات عند دخول المقبرة بملأ كؤوس من الماء ووضعها على القبور حتى يتمكَن الطير والحيوانات من شربه بنيَة الصدقة على الموتى وحتى يغيثهم اللّه بالمطر لأنَ الصدقة تطفئ غضب الرب، كما تقرأ النساء آيات من القرآن الكريم على الموتى، ثم تتوجَهن إلى ضريح الولي الصالح (السلطان موسى)وهن مستمرات في قراءة القرآن والتضرع للّه بالدعاء (اللهم أغثنا فأنت القوي ونحن الضعفاء، اللهم اسقنا ولا تجعلنا من القانطين)، وداخل الضريح يوجد منجل تقوم

النساء بغمسه في التراب ثم تقوم بتمريره على رقاب الأطفال وهن تردَدن (واللّه نذبحوا، واللّه ما نذبحوا) وهنا تجدر الإشارة إلى أنه في الفلكلور العالمي كان يعثر على المناجل بكثرة في المقابر وهي ترمز لعنصر سحري يحمي الموتى والأحياء، عندما سألنا السيدات حول هذا السلوك كانت إجابتهن بأنَ هذا الفعل له وظيفة علاجية فهو يبرئ الأطفال المصابين باللوزتين، لكن عند بحثنا وجدنا بأنَ المنجل يرتبط بالأرض والفلاحة فهو في المقام الأول عبارة عن أداة زراعية تستخدم في الحصاد وتنظيف الأرض كما أنه أداة لطرد الأرواح الشريرة وجلب البركة،

ثالثا: المرأة الفاعلة في طقوس استنزال المطر بمنطقة جبالة

تحتل المرأة مكانة محورية في طقوس استنزال المطر ضمن المجتمعات الجبلية التقليدية، بما فيها منطقة جبالة (تلمسان). ويتجلى هذا الدور الفاعل في كون المرأة تمثل، داخل المخيال الجمعي، وسيطًا بين الجماعة والخصب الطبيعي الذي ينتظرونه من الغيث. فالمرأة، بما تحمله من رمزية الحياة والتجدد والخصوبة، تصبح المؤهلة أكثر من غيرها لأداء طقوس تستدرّ الحياة مجددًا في عالم أنهكه الجفاف الذي يُرى في الخطاب الشعبي كمؤشر لخلل في النظام الكوني–الاجتماعي، والمرأة هي التي تُستدعى رمزيًا لإعادة التوازن لهذا النظام.

لا تقتصر مشاركة النساء على الحضور الرمزي فقط، بل تشمل أدوارًا عملية ومركزية في تنظيم الطقوس، واختيار الرموز، وإعداد الأدعية والأهازيج الخاصة بالاستسقاء. ففي كثير من الطقوس الجبالية، تتصدر النساء المواكب الجماعية، وهن يحملن أدوات رمزية مثل الدمى المصنوعة من الخشب أو الطين، والتي تزين بأقمشة ملونة وتسمى أحيانًا "عروسة الغيث" أو "البابور"، وتطوف بها النسوة على البيوت لجمع التبرعات من الحبوب والماء، وسط أهازيج تتضرع إلى اللّه ليرسل المطر.

يمكن تفسير هذا الحضور القوي للمرأة من منظور أنثروبولوجي، استنادًا إلى تمثلات قديمة تربط بين الأنوثة وعناصر الطبيعة الأساسية مثل الماء والأرض. فالمرأة، ككائن منتج للحياة عبر الإنجاب، تعتبر امتدادًا رمزيا للأرض الخصبة، وكما تحتاج الأرض للمطر كي تزدهر، كذلك تحتاج المرأة للماء كي تؤدي دورها الطبيعي في الحياة. لذا، يصبح حضورها في طقوس استنزال المطر ضرورة رمزية لضمان الفعالية المرجوة من الطقس.

كما يرتبط دور المرأة في هذه الطقوس بمسؤولياتها التقليدية داخل البنية الاجتماعية الجبلية، حيث كانت وما تزال حارسة للمعرفة الشعبية المتعلقة بالطقس والزراعة والعلاقات مع قوى الطبيعة. فالأناشيد التي تُنشد خلال طقوس الاستسقاء كثيرًا ما تحفظها النساء وتتناقلها شفويًا جيلاً بعد جيل، مما يعزز من موقعهن كناقلات للموروث الثقافي والروحي للمجتمع.

ومع تغير أنماط الحياة ودخول مظاهر الحداثة إلى العالم القروي، بدأت أدوار النساء في طقوس استسقاء المطر تتراجع تدريجيًا، خاصة مع تراجع الطقوس نفسها لصالح صلوات الاستسقاء الرسمية التي تنظَّم في المساجد تحت إشراف ديني. ومع ذلك، لا تزال بعض أشكال المشاركة النسوية حاضرة في الذاكرة الجمعية وفي بعض القرى التي ما تزال تحافظ على هذا الموروث التقليدي بوصفه جزءًا من هوية الجماعة وروحها الثقافية، وفيما يلي شرح للأبعاد التي تحملها مشاركة المرأة في طقس الاستسقاء من خلال جدول تفصيلي:

جدول رقم (4): رمزية المرأة في طقوس الاستسقاء بمنطقة جبالة -تلمسان

البعد الرمزي	التمثلات	الممارسات الطقسية	الوظيفة الاجتماعية والثقافية	التفسير الأنثروبولوجي
الخصوبة	المرأة تُعتبر وسيطًا بين الأرض والسماء	اختيار فتاة صغيرة لحمل دمية "العروسة" المصنوعة من الخشب	تعزيز الأمل في "ولادة" المطر وإنهاء القحط	المرأة ترتبط بالأرض والخصوبة، وحمل الدمية يرمز لطلب الإخصاب والإنبات
الطهارة والبراءة	تفضيل الفتاة الصغيرة	تزيين الفتاة بالزهور ولباس أبيض	تنقية الجماعة من الذنوب عبر وساطة "كائن طاهر"	الطهارة الطقسية شرط لقبول الدعاء والطلب، وتُسقط على المرأة ككائن طاهر بالفطرة
الوساطة الروحية	المرأة حلقة وصل بين المجتمع والمقدّس	النساء يقدن الموكب الإنشادي والدعاء الجماعي	منح الطقس طابعًا جماعيًا وشعائريًا حميميًا	تؤدي المرأة دورًا طقسيًا ككائن قادر على مخاطبة قوى الغيب
الجماعة	المرأة تمثل الرابط بين الأجيال	مشاركة النساء من مختلف الأعمار في الطقس	ترسيخ قيم التضامن العائلي والمجتمعي	تجسد المرأة البُعد الجماعي والتضامن، وهي ناقلة للذاكرة الجماعية
الاستجداء والخضوع	المرأة تظهر في موقع المتوسّل لا المتسلّط	ترديد أناشيد مثل "يا الشتا صبّي صبّي، باش نعيشوا يا ربي"	التعبير عن الحاجة الجماعية وطلب الرحمة الإلهية	تعكس الأناشيد تمثل المرأة كرمز للضعف الخلاق واستحضار الخضوع كقيمة لإثارة التعاطف الإلهي

الإنتاج الجماعي	المرأة كمحرك للأنشطة المنزلية	تحضير الطعام الجماعي كالكسكسي والزميت أو الخبز الطقسي	ترسيخ التضامن وتقاسم "بركة الدعاء"	الدور الإنتاجي والتعاوني للمرأة يعزز الترابط المجتمعي
الهوية الثقافية	المرأة كحافظة للطقوس والعادات الشفوية	تناقل الأغاني الطقسية بين الجدات والحفيدات	تثبيت الطقوس كتراث لا مادَي عبر الأجيال	المرأة كحاملة للذاكرة الطقسية والشفهية للثقافة المحلية
التأنيث الرمزي للطبيعة	الطبيعة تؤنث والمرأة تجسد حالتها	تماه رمزي بين الفتاة الحاملة للدمية والأرض العطشى	خلق تماهٍ بين الجفاف وتأخر الولادة/الخصوبة	الطبيعة تُؤنّث، والمرأة تُجسد حالتها؛ الأرض تنتظر الغيث كما تنتظر المرأة الولادة

المصدر: من إعداد الباحثتين

خاتمة ونتائج الدراسة

تكشف طقوس الاستسقاء عند نساء جبالة عن عمق الارتباط بين الإنسان والمقدس في مجتمع ريفي يحتفظ بخصوصياته الرمزية والروحية. فمن خلال دراسة هذه الطقوس، اتّضح أنها ليست مجرد استجابات دينية لفترات الجفاف، بل هي أنساق ثقافية تحمل دلالات جماعية تتجاوز البعد المناخي لتشمل مفاهيم الانتماء، والهشاشة البيئية، والتكافل الاجتماعي، ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها في نهاية بحثنا:

- المكانة المركزية للمرأة: لعبت النساء وخصوصًا العجائز منهن، دورًا محوريا في تنظيم الطقوس ممَا يعكس تمثيلات تقليدية للمرأة كوسيط بين الأرض والسماء، أو بين الجماعة والقوى الغيبية.
- التجذر الرمزي للطقوس: تتأسس طقوس الاستسقاء على رموز بدائية (الدمى، الماء، الطين، الغناء الجماعي) وتعكس استمرارية لطقوس ما قبل إسلامية تمّت أسلمتها وتأويلها دينيًا.
- البعد الجماعي والمصالحة مع الطبيعة: تشكَل الطقوس لحظة اندماج جماعي تعيد تماسك النسيج الاجتماعي وتفتح قنوات رمزية للتواصل مع الطبيعة، باعتبارها كائنًا فاعلاً في التوازن الكوني.
- المقدّس في السياق المحلي: تُعيد الطقوس تشكيل العلاقة بالمقدّس ضمن أطر ثقافية محلية، حيث يُعاد إنتاج الدين الشعبي بطريقة تتماشى مع المعيش اليومي والقلق البيئي.

وقد خرجنا بمجموعة من التوصيات أهمَها:

- توثيق الطقوس ضمن مشاريع الإحياء الثقافي، نظرًا لتعرضها للاندثار تحت تأثير التحديث والعولمة، مع احترام خصوصية الجماعة.
- تشجيع البحوث المقارنة بين طقوس الاستسقاء في مناطق مغاربية مختلفة، مما يسمح بفهم التنوع الثقافي ضمن وحدة دينية شكلية.

- إدماج المعارف البيئية المحلية التي تتجلى في هذه الطقوس ضمن سياسات التنمية الريفية المستدامة، بوصفها تعبيرًا عن فهم بيئي طويل الأمد.
- تحليل الطقوس في سياقات التحول الاجتماعي (الهجرة، التغير المناخي، التحولات القيمية)، بما يفتح آفاقًا لفهم ديناميكيات التكيف الثقافي.

التعليقات والشروح

1- أصل تسمية جبالة مستمد من طبيعة المنطقة الجبلية (نسبة لجبال ترارة في سلسلة جبال الأطلس الكبير)، تقع شمال غرب تلمسان، تتربع على مساحة تقدَر ب 115 كلم مربع، ويتكوَن عرش جبالة من 4 فروع هي: مسيفة، العيون، ماتيلا، وزاوية سيدي عبد الرحمن اليعقوبي.

2- حسب حديث أنس بن مالك: كان النبي صلى اللّه عليه وسلَم لا يرفع يديه في شيء من دعائه إلاَ في الاستسقاء فإنه كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه (متفق عليه).

3- لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع لكتاب إدموند دوتي: Magie et religion dans l'Afrique du nord, 1909.

4- ترنانة هي قبيلة من قبائل جبالة ذكرها البكري في كتابه (الممالك والمسالك)، بينها وبين ندرومة 8 أميال.

قائمة المراجع

1- المحواشي، منصف. (2010، جويلية- سبتمبر). "الطقوس وجبروت الرموز: قراءة في الوظائف والدلالات ضمن مجتمع متحوَل". إنسانيات، العدد 49، ص 15-43.

2- المعجم الوسيط (2004 الطبعة الرابعة). مصر: مكتبة الشروق الدولية.

3- أوسوس، محمد. (2025)، طقوس الاستمطار الأمازيغية (البربرية) وأساطيرها بشمال إفريقيا، تم استرجاعها في تاريخ 16 أبريل 2025، https://aranhropos.com

4- آيت أومغار، سمير. (بدون تاريخ)، طقوس الاستمطار إبَان الجفاف في الجزائر نماذج من مطلع القرن العشرين، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 41، تم استرجاعها في تاريخ 20 أبريل 2025، https://folkculturebh.org

5- بن عبد المومن، ابراهيم. (2016، أبريل). "المدرسة التعليمية الحرة في منطقة جبالة بين التيار الإصلاحي والتيار الاستقلالي الثوري 1951- 1953". الحكمة للدراسات التاريخية، 04(07)، ص100-116.

6- بلقاسم، بوبكر. (15 فبراير 2020)، "أنزار" عند الأمازيغ قصة الحب التي جفَت بسببها السماء، تم استرجاعها في تاريخ 30 مارس 2025، https://ultraalgeria.ultrasawt.com

7- بوقفة، صبرينة. (2024، جوان). "كرونولوجيا طقوس استنزال المطر: أبعاد ورموز". الكلم، 09(01)، ص218-233.

8- بيجيكن، رشيد. (15 فبراير 2022)، "بلغنجا" طقوس تستمطر السماء لتجاوز محنة الجفاف وندرة الماء، تم استرجاعها في تاريخ 1 ماي 2025، https://www.hespress.com

9- سيساوي، نبيل. (2018، ديسمبر). "الطقوس والشعائر الدينية بين معقولية العقل ومعقولية الروح". الشهاب، 04 (04)، ص433-454.

10- عربي TRT . (2022/03/06)، تاغنجا عروس إله المطر تعرف الطقوس الشعبية المغربية للاستسقاء، تم استرجاعها في تاريخ 15 أبريل 2025، https://www.trtarabi.com